الشعب . فالشعب الجاهل من الصعب ان يثور . والشعب الجاهل سياسيا على وجه الخصوص هو اعصى الشعوب على الثورة الناضجة السليمة . لقد كان من مصلحة النظام الاجتماعي المصري قبل الثورة الا يكون هناك اي نوع من الوعي السياسي الشعبي . فلقد كان الوعي السياسي كفيلا بهدم الكثير من اسس هذا النظام القديم . فالنظام كله كان يتحرك في نطاق الاقطاعيين والرأسماليين . وحتى حزب الوفد الذي كان يحتل اكبر مكانة سياسية بين جماهير الشعب ... كان هذا الحزب يعتمد بالدرجة الاولى على الاقطاعيين والرأسماليين في اختيار عناصره القيادية . واذكر ان النائب الوفدي الذي كان يمثل منطقتنا التي تقيم فيها اسرتي وهي احدى مناطق المنصورة ... هذا النائب الوفدي كان اقطاعيا كبيرا ، وقد ورث مركزه النيابي في حزب الوفد عن والده الذي كان هو الاخر اقطاعيا كبيرا . وكان غاية ما يمكن ان يقدمه هذا النائب من خدمات « اسطورية » الى الشعب هو ان يساعد – بنفوذه – في توظيف بعض ابناء القرية وما الى ذلك من الخدمات الصغيرة . وكانت هذه الخدمات المحدودة تجد ما يشبه جهاز الدعاية المنظم الذي يجعل منها فضائل تفوق التصور . رغم ان هذه الخدمات في حقيقتها ليست الا نوعا من الاخلاق الاقطاعية الرديئة ، فهي التي كانت ترسخ في عقول الشعب ان « المعرفة » و « القرابة » و « العلاقات الشخصية » و « الوساطات » وما الى ذلك هي السبيل الى حل المشاكل التي يواجهها الانسان في الحياة الاجتماعية . ولذلك فقد كان الانسان بحاجة الى اي لون من هذه « الوساطات » لكي يعلم ابناءه ، ولكي يعالج نفسه ، ولكي يجد العمل الذي يقتات منه هو واسرته . لقد كان ثابتا في اذهان الجميع ان هذه الوساطات المختلفة هي الطريقة الوحيدة والمشروعة للحياة . اما فكرة تكافؤ الفرصة ، وفكرة حق المواطن في الخبز والثقافة ، وفكرة ان المواطن المنتج ودافع الضرائب هو صاحب حق اساسي في كل الخدمات التي يقدمها المجتمع ... كل هذه الافكار كانت بعيدة عن الجو الذهني للجماهير بحكم الطقس السياسي الذي كانت تعيش فيه . وبالطبع كان هناك كثيرون من النواب واصحاب السلطة السياسية عموما يستغلون هذا الاسلوب الشائع والمعترف به من الجميع في تحقيق مطالب المواطنين ، كان هؤلاء النواب يفتحون مكاتب لتحقيق حاجات المواطنين المختلفة مقابل اتاوات معينة . وقد كان المعروف ان النائب في البرلمان القديم يتقاضى اربعين جنيها كمكافأة شهرية ، بينما كان هؤلاء النواب يعيشون حياة مترفة الى اقصى حد . اننا اليوم في الجمهورية العربية نجد كثيرين جدا من النواب لا يملكون عربات خاصة ، وهم ايضا يسكنون في شقق بسيطة عادية ، وبعضهم يلبس بلا ادنى حرج الزي الشعبي المعروف للفلاحين والفلاحات . ولكن النائب القديم لم يكن كذلك على الاطلاق . كان لا بد ان يظهر بالمظهر اللائق لمن هم امثاله من اصحاب السلطة السياسية ، فلا بد ان يملك العربة والبيت الكبير والملبس الفخم . ولذلك فقد لجأ الكثيرون من النواب القدماء الى المتاجرة الصريحة بحاجات الجماهير مستغلين شيوع اسلوب الوساطات في اجهزة الدولة .

ومثل هذه المواقف العملية والفكرية ، كان من المستحيل ان توجد في مجتمع تتمتع جماهيره بثقافة سياسية عالية . فهذه الثقافة هي التي ستكشف ان العيوب الرئيسية في المجتمع هي الاقطاع والرأسمالية وان الخدمات الصغيرة التي يقدمها النواب للجماهير ليست الا محاولة لستر العدوان الرئيسي من جانب هؤلاء النواب على جماهير الشعب .

ولم تحاول الاحزاب القديمة على الاطلاق ان تنمي في داخلها اجهزة للتثقيف السياسي . لانها كانت في حقيقتها تكره هذه الثقافة السياسية وتنفر منها . ولنأخذ حزب الوفد – مرة اخرى – على سبيل المثال . لقد كان المفروض في هذا الحزب بالذات ان يعنى بثقافة الجماهير السياسية ، فهو – في التركيب السياسي القديم – حزب الشعب الاول ... الحزب الذي كانت الجماهير تلتف حوله وتؤيده دائما . ومع ذلك فقد ظل هذا الحزب طيلة وجوده حزبا فارغا من الناحية الفكرية . وعندما انضم اليه بعض المثقفين اليساريين المخلصين حاولوا ان يملأوا هذا الفراغ الفكري . وقد حدثني استاذنا الدكتور محمد مندور ، الذي كان من المع العناصر اليسارية المثقفة في حزب الوفد عن محاولاته العنيفة هو وعدد من الشبان الواعين لكي يخلقوا في هذا الحزب تيارا فكريا له قيمته . لقد لقي الدكتور مندور ومجموعته حربا لا هوادة فيها من جهاز الحزب الرئيسي الذي كان يتزعمه الاقطاعي المعروف فؤاد سراج الدين . لقد كان هذا الجهاز يريد ان يبقى الحزب على اساسه القائم وهو الولاء الشخصي لبعض القادة ، وترديد شعارات غامضة عامة لا ترقى ابدا الى مستوى المنهج الثقافي المحدد . وقد كافح الدكتور مندور حتى اقنع الحزب بضرورة رفع شعار اكثر وضوحا ودقة واستطاع اخيرا ان ينجح في الحصول على موافقة الحزب على شعاره الثلاثي المعروف « الديموقراطية السياسية – العدالة الاجتماعية – وحدة وادي النيل » ، حيث كان هذا الشعار يمثل الخطوط العامة للامال الشعبية في ذلك الوقت . وكان هذا اقصى ما وصل اليه هذا الجناح اليساري الشاب في حزب الوفد . ومن الواضح ان هؤلاء المثقفين اليساريين الشبان في حزب الوفد قد فشلوا في تعميق الاتجاه الفكري للحزب وفي دفعه الى ان يلعب دورا في التثقيف السياسي للجماهير . ومن المعروف ان هذا الحزب عندما وصل الى الحكم في وزارته الاخيرة سنة ١٩٥٢ ، بدأ يعمل عن طريق فؤاد سراج ايضا – وهو الشخصية الرئيسية القوية في داخل الحزب – على الوقوف في وجه الصحافة ، ومحاولة سن تشريعات مختلفة للحد من حرية الصحافة حتى لا تقوم بدورها الكبير في التثقيف السياسي للجماهير . فقد شعر هذا الحزب ان زيادة وعي الجماهير تعني زيادة معرفتها بالتناقضات الرئيسية في داخل المجتمع وتعني زيادة مطالبها وتعني في النهاية انها سوف تصبح جماهير ثورية لها تأثيرها وخطورتها الكبيرة .

هذه الامثلة كلها تكشف عن الحرب الضارية التي كانت الاحزاب القديمة تشنها ضد التثقيف السياسي للجماهير ، حتى حزب الشعب

ايضاح

سبق وان نشر لي حديث ادبي في مجلتنا « الحرية » الغراء في العدد ٢٤٣ المؤرخ في ٢٦ تشرين اول ١٩٦٤ . وقد جاء في حديثي ذكر صديقنا الشاعر خليل حاوي، واود هنا ان اضيف الى رأيي السابق ، فأقول : انني اعتز بشاعرية خليل حاوي واعتبره من شعراء الطليعة العربية ، وان اشعاره اضافة جديدة الى شعرنا العربي، ولعل اهم ما تمتاز به اشعاره هو انها طوعت القالب العربي لمتطلبات العصر وان افكارا متسلسلة متماسكة تنتظم سلكها وانه استطاع ان يضيف لونا جديدا كنا نفتقده في شعرنا .

وانني لم اقصد في حديثي المشار اليه اي مساس بموقفه الطيب من القضية العربية

القاهرة ١٢ – ١١ – ١٩٦٤

عبد الوهاب البياتي